هوس الشاشة.. وعشق الصور ووعود التجميل

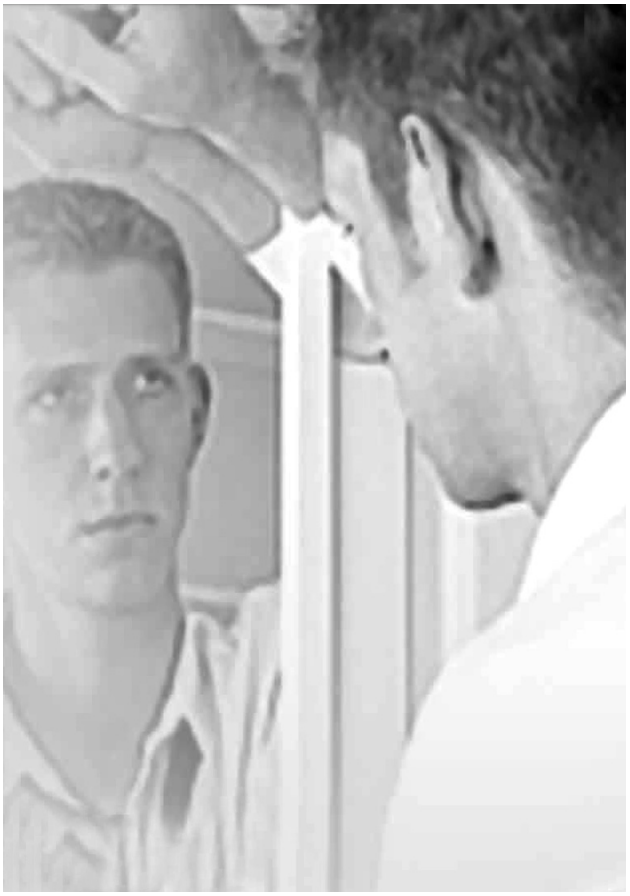

يجلس الناس أمام الشاشات(التليفزيون والكومبيوتر) أكثر مما يفعلون أى شىء آخر فى حياتهم، ويستوى فى ذلك الصغار والكبار، والآن تزاحم شاشة ثالثة وهى شاشة المحمول مع وصول الجيل الثالث ذى الكاميرا المزدوجة، وهكذا تستولى الشاشة على مساحة الوعى بصورة تكاد تصبح كاملة. وأصبح العصر الذى نعيشه يستحق وصف «عصر الصورة» فقد أصبحت الصورة تلعب فيه دور البطولة المطلقة وصار الناس ـ خاصة الشباب أومن يتشبثون بشبابهم ـ مشغولين بصورة الوجه وبشكل الجسم، ومن لايعجبه وجهه أو جزء منه يحلم بتغييره أو يذهب فعلا لإخصائى التجميل، ومن لايعجبه جسمه سيجد صالات الجمنيزيوم وقد انتشرت فى كل مكان تقدم الخدمة لطالبيها، ومحلات أدوات التجميل ومساحيقها تنقل الخدمة إلى البيت ومحلات الأدوات الرياضية تفعل نفس الشىء.

وقد يقول قائل ومالعيب فى ذلك؟.. أليس الجمال قيمة؟ وأليس التناسق شيئا مريحا للعين والعقل والقلب معا؟.. ومادامت الحياة العصرية لديها الإمكانات للارتقاء بالجمال فلماذا لانستفيد من هذه الإمكانات؟

والإجابة فى هذا الموضوع هى من نوع «نعم ولكن» ، فنعم لكل مايرتقى بجمال الإنسان وجمال البيئة وجمال الحياة، ولكن بشرط أن لايكون هذا مسحوبا من رصيد الجمال الكلى والجمال الحقيقى، وأن لاننشغل بالصورة إلى درجة الهوس أو إلى درجة الوسواس. وقد ارتبطت الحضارات بارتفاع معايير الجمال سواء الحقيقية أو المتخيلة فنجد التماثيل والصور فى الحضارة المصرية القديمة وفى الحضارتين اليونانية والرومانية تفيض بالقوة والجمال والرشاقة

وقد رأيت فتاة ترغب فى الارتباط بشاب لالشىء إلا لأنه يحمل حسنة فى وجهه تشبه حسنة فى وجه أحد النجوم المفضلين لديها، ورأيت شابا مهووسا بفتاة«علشان جسمها حلو زى الراقصة س»، وهذا شاب مشغول طول الوقت بأن أنفه كبير أكثر من اللازم وحين نظرت إلى أنفه وجدته أجمل شىء فى وجهه واكتشفت أن أنفى أنا ضعف أنفه فى الحجم. وقد قرر أحد الأزواج طلاق زوجته والاقتران بأخرى، وحين سألته قال إن زوجته غاية فى الإخلاص والوفاء والطيبة والحنان وأنها تفعل له كل مايتمناه أى زوج، ولكنها للأسف«تخينة شوية» وهو يعشق النحيفات من النساء ويحلم باحتواء أجسادهن الصغيرة لكى يستشعر تفوقه الذكورى، وبما أنه يخشى الفتنة على نفسه خاصة وهو يرى تلك الموديلات من فتيات الفيديو كليب لذلك قرر طلاق زوجته والبحث عن إحدى هذه الموديلات.

هكذا يشكل الوعى طبقا لأولويات الصورة ودواعى التصوير، وتتوارى من الـ «كادر» فضائل النفس وسمو الروح، ومن هنا انتشرت ظاهرة تعددية العلاقات والخيانات بين الجنسين كوباء يهدد بزوال كل قيم الإخلاص والوفاء وكل معانى السكينة والمودة والرحمة، هذه الظاهرة لها أسباب كثيرة من بينها التركيز الأكبر على الصورة وعلى الشكل، لأن الجمال الشكلى يتعدد ويتلون، أما الارتباطات الأعمق فتقل تعدديتها كلما زاد عمقها.

●●●

ويجب الإنتباه فى هذا

السياق إلى بعض الحالات المرضية التى تنشغل بالشكل انشغالا مرضيا، ونذكر منها **اضطراب تشوه شكل الجسم Body Dysmorphic disorder** وفيه ينشغل المريض بفكرة أن جزءاً من وجهه أو جسمه مشوه أو مختلف أو أكبر من اللازم أو أصغر مما يجب، ويقف المريض (أو المريضة) أمام المرآة ساعات طويلة يتأمل هذا الجزء، ثم يبدأ رحلة التردد على أخصائى التجميل باحثاً عن الحل، فيقولون له (فى حالة صدق النوايا وأمانة المهنة) إن حالتك لا تحتاج إلى أى عمليات تجميل، ولكن المريض يصر إصراراً شديداً على ذلك ويظل يمر على جميع أطباء التجميل على أمل أن يوافقه أحدهم على أن أنفه كبير أو أذنه «مطرطأة» أو أن فى وجهه نمشا يحتاج للسنفرة. والمريض هنا لاتفيد معه المناقشات المنطقية التى تهدف لإقناعه باعتدال صورة وجهه أو أعضاء جسده، فالمشكلة هنا ليست فى صورته الخارجية وإنما فى صورته الداخلية، فلكل منا ثلاث صور: الأولى هى صورتنا التى نراها فى المرآة، والثانية هى صورتنا التى يراها الناس ويتفاعلون معنا على أساسها، والثالثة هى صورتنا الداخلية (الصورة الذهنية).

وقد تحدثت عالمة النفس الشهيرة «كارين هورنى» عن ثلاث صور للذات هى:

- الصورة الاجتماعية (التى نظهر بها للناس).
- الصورة المثالية (التى نتمنى أن نكون عليها).
- الصورة الحقيقية (التى هى حقيقتنا فعلا).

وكلما كانت الصور الثلاثة للذات قريبة من بعضها توقعنا استقراراً وتناغماً نفسياً، أما إذا تباعدت المسافات فإننا نتوقع شروخاً فى النفس تؤدى إلى تداعيات نفسية أو اجتماعية قد يكون بعضها خطيراً ومهدداً للتوازن النفسى. والشخص أو المريض قد يطلب عملية تجميل بناء على أى صورة من هذه الصور، وأصعبها هو الصورة الداخلية (الذهنية) لأنها الأكثر إلحاحاً والأقل منطقية من حيث الاحتياج لعمليات التجميل. ولست أنسى شاباً وسيما فى الثلاثينات جاءنى يشكو من نفور الناس منه نظراً لقبح وجهه، على الرغم من أن الشىء الواضح فيه هو وسامته وتناسق ملامحه وجمال وجهه.

وهناك فئة أخرى من المرضى لديهم مانسميه بالضلالات، وهى أفكار خاطئة يعتقدها المريض اعتقاداً جازماً ولا تتغير بالمناقشة أو الإقناع، وهنا قد يعتقد المريض أن شفتيه غليظتان لأنه ورثهما من علاقة غير شرعية لأمه بشخص أفريقى أو أن وجهه وجه قرد أو أن عضواً فى جسده غريب عليه ويريد أن يتخلص منه أو يستبدله بعضو أفضل، وهذا يحدث فى حالات الفصام أو حالات الاضطراب الهذائى، وهى اضطرابات نفسية شديدة تحتاج لعلاج متخصص على المستويين الدوائى والنفسى.

وبالطبع نحن حين نتعامل مع هؤلاء المرضى فى العيادات النفسية فإننا نعمد مباشرة إلى الصورة الداخلية ونرى كيف تكونت ومن الذى غذاها بمعلومات جعلها تبدو هكذا، **أى أننا بلغة الكمبيوتر نحاول أن نرى الفيروس الذى غير البرمجة وقلب الحقائق**، وقد يكون هذا الفيروس والدة شديدة الانشغال على شكل ابنها وشديدة التدقيق فى ملامحه والقلق على أى شىء يشوب هذه الملامح أو يكون الفيروس لوما وتقريعا وانتقادا تعرض له الشخص ممن قاموا على تربيته فى مراحل مبكرة من عمره، أو يكون محتوى نفسيا مرفوضا أخلاقيا واجتماعيا فيظهر على السطح فى وصورة شكل مرفوض اجتماعيا، أى أن التشوه هنا تشوه داخلى وليس خارجيا ولكن الشخص لايتحمل وعيه الاعتراف بالنشوه الداخلى الذى يصيبه فى مقتل فيستبدله - بلا وعى - بتشوه خارجى«مقدور عليه».

●●●

ومن أكثر الشخصيات طلباً لعمليات التجميل الشخصية الهستيرية والشخصية النرجسية، فالأولى تعلى كثيرا من قيمة الشكل الخارجى وتريد من خلاله أن تجذب الانتباه وتصبح محل الاهتمام ومصدر الإبهار لمن حولها ، وهى شخصية سطحية استعراضية درامية، خادعة ومخدوعة، وباردة عاطفيا وجنسيا وكل ثروتها تكمن فى الإبهار الخارجى وتحقيق أعلى قدر من الجاذبية.

والثانية(أى النرجسية) يتركز اهتمامها بشكل كبير حول ذاتها وتري أن هذه الذات منفردة ومتفردة ولاى شىء يعلو عليها لذلك تولى هذه الذات المتضخمة كل الرعاية حتى تجعلها فى الصورة الأفضل دائما فلايكون هناك أجمل منها فالدافع هنا هو الإحساس بالأهمية الخاصة وبالتفرد والتميز ، ولهذا تجد الشخص النرجسى شديد الاهتمام بتفاصيل صحته وشياكته ومظهره لأنه شديد الاهتمام والانبهار بذاته المتضخمة، وهو يفعل كل مايجعله جديرا بالنجومية والتألق.

بقلم:

د. محمد المهدى

استشارى الطب النفسى

ومادام هناك أناس مهووسون بالصورة وبالشكل فتلقائيا تتطور الخدمة وتتشكل لتحقق احتياجاتهم وبل وتشغل هذه الإحتياجات أكثر بماتقدمه من وعود وما تحققه من إنجازات، ولهذا وجدنا مراكز التجميل المرخصة وغير المرخصة، وصالات الجمنيزيوم فى كل مكان تعد بالوجه الجميل والملامح العذبة الخالية من أى عيوب، وكانت النتيجة فتيات رشيقات أنيقات وشبابا يفخر بتكوين جسمه العضلى من خلال مشيته منفوخ العضلات وملابسع الضيقة التى تبرز ذلك لمن لم ينتبه . وهكذا استحوذت الصورة على الـ«الكادر» بالكامل وكلما أراد أحد أن ينبه الناس بأن الله لاينظر إلى صورهم ولا إلى أجسادهم وإنما ينظر إلى قلوبهم لم يجد آذانا مصغية، فليس هناك صوت وإنما صورة فقط. والخطورة فى الموقف كله تكمن فى اختزال معايير الجمال بحيث تتركز فى شكل الوجه وفى شكل الجسم وتتآكل بقية مساحات الجمال الإنسانى لحساب الصورة، وعندئذ ستتحول الحياة إلى استوديو كبير ويصبح طبيب التجميل هو المؤلف والمخرج لقصة الحياة، ولاعزاء للقلوب والأرواح.